أوراق مفتوحة: فكر يتحرك وحركة تفكر:

محمد عابد الجابري «ساردا» لـ«فكر» المهدي بن بركة

يحيى بن الوليد*

■ عندما تساءلنا في مختتم دراستنا الأخيرة «إخفاق الإيديولوجي ــ عبد الله العروي ناقدا لـ«فكر» المهدي بن بركة» («القدس العربي» 2006/10/20) حول إمكانية قراءة أخرى لـ«فكر» المهدي بن بركة، لم تكن تغيب عن ذهننا قراءة المفكر محمد عابد الجابري للفكر ذاته، لكن بالاستناد إلى «إطار مرجعي» مغاير قوامه ـ على مستوى الموقف ـ «الانخراط العملي» لا «الالتزام الفكري» وــ على مستوى المقاربة ــ «السرد الفكري» لا «النقد الإيديولوجي». وقبل أن نشرع في هذا الموضوع لا بأس من التأكيد على أن مقاربة محمد عابد الجابري لـ«فكر المهدي بن بركة» تأخرت كثيرا، بل وطال انتظارها من قبل المهتمين سواء بفكر صاحب «الاختيار الثوري» أو صاحب «نحن والتراث». ومصدر الانتظار أن الجابري كان «متجذرا» في «الحزب» (الذي «ترفع» العروي عن ذكر اسمه مع أنه لا يمكن تغييبه) ومن «صانع أفكاره» المهدي بن بركة. وما جعل القارئ، أو بالأدق المهتم بـ«عقل» الجابري، يترقب هذه الكتابة نص الحوار اللافت حول المهدي بن بركة الذي كان قد أجراه معه الصحافي والشاعر حسن نجمي في جريدة «الاتحاد الاشتراكي» في 29 تشرين الاول/ أكتوبر 1989 أي في إطار إحياء الذكرى 24 لاختطاف الرجل.

لقد عاد إلى الملف بعد ما يزيد على عشر سنوات من تاريخ الحوار سالف الذكر وفي سياق ما أسماه بـ«ملفات من الذاكرة السياسية» التي فتحها بعد فراغه من مشروعه الكبير الذي عرف بـ«نقد العقل العربي». وقد صدر المشروع في أربعة أجزاء وعلى مدار زمني يمتد من 1984 إلى 2001، بل وتعود بداياته إلى ما قبل ذلك بالنظر إلى الكتب الفكرية التي مهدت له وبدءا من «نحن والتراث» الذي نشره في مستهل الثمانينيات، مما تطلب منه وقتا كبيرا ونوعا من «الفراق» أو «الطلاق» مع الحزب؛ غير أن هذا الفراق لا يبدو أنه كان «وجوديا»، فالحزب ظل حاضرا في تفكير صاحب «الخطاب العربي المعاصر» مثلما ظلت ذاكرة هذا الأخير متوقدة على هذا المستوى، وهو ما كانت تفسره كتاباته ــ وإن من حين لآخر ــ في «الصحافة الاتحادية»... بل وإقدامه على «تثمين» تجربة «حكومة التناوب» (1998ــ2002)، في بداياتها الأولى، بل وفي عز «انتقادها» ومن قبل «الاتحادين». وهو ما كنا قد سعينا إلى تبيانه في دراسة مطولة «المثقف والحزب» نشرت عبر حلقتين في جريدة «الاتحاد الاشتراكي» (20/16 شباط/ فبراير 2001).

قلنا إن محمد عابد الجابري عاد إلى الموضوع ضمن «ملفات الذاكرة السياسية»، وهي سلسلة من الكتب صغيرة الحجم ومعنونة بـ«مواقف، إضاءات وشهادات». وتنطوي هذه الكتب على آراء ومواقف ومعطيات تخفى حتى عن بعض الذين عاشوا تجربة «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» التي كرس لها الأعداد الأولى من الملفات. ويعود هذا التميز إلى صاحب الكتب وقدرته على التحليل والتركيب والانتهاء ــ بالتالي ــ إلى خلاصات ونتائج تترتب عن المقدمات، وكل ذلك بالاستناد إلى منظور «الكتابة المعمارية» التي تسعف على مثل هذه الخلاصات.

ففي هذا الإطار خصص ملفا للمهدي بن بركة في جزأين (العدد 6 و7/ 2002): الأول تحت عنوان «المهدي بن بركة ــ مسؤوليات الاستقلال ومهام بناء المجتمع الجديد»، والثاني «المهدي بن بركة ــ النقد الذاتي، مؤتمر القارات الثلاث، والاختطاف». والعناوين الفرعية للكتابين جديرة بأن تشير إلى المواضيع التي تعالجها المقاربة تفاديا لأي شكل من أشكال الالتباس. غير أن ما سلف لا يحول دون التساؤل حول «الإستراتيجية» التي يستند إليها مفكرنا في التعامل مع الرجل أو «دينامو المغرب المعاصر» كما كانت تلقبه الأوساط الإعلامية الأجنبية.

وبالنظر إلى حجم تأثير المهدي بن بركة لا يمكن للجابري أن يتلافى استحضار بعض المقاطع من سيرتهما المشتركة؛ وبدءا من توجيهه له، ذلك التوجيه الذي سيحرم الجابري ــ وفي عز شبابه ــ من مواصلة دراسته الجامعية في السربون بفرنسا. ثم إن أهم ما سيثقفه منه هو «الرياضيات» أو «خياله الرياضي المبدع» الذي انعكس على نشاطه السياسي. وفي هذا السياق يمكن أن نشير إلى قولة المهدي التي استشهد بها الجابري في أكثر من مرة، وهي: «إن من لم «يكسر» رأسه مع المسائل الحسابية من نوع الصهريج الذي تملؤه أنابيب مياه وتفرغه في نفس الوقت أنابيب أخرى، ليعرف متى وكيف سيمتلئ الصهريج، إن من لم «يكسر» رأسه مع هذا النوع من المشاكل لا يستطيع أن «يعمل» السياسة في العصر الحاضر» (الجزء الأول، ص 25 ــ26). ولا يكمن تأثير الرياضيات في أحد كتب الجابري الأولى التي سيخصصها للرياضيات «الرياضيات والعقلانية المعاصرة» (1976) فقط، وإنما في قراءته للتراث أيضا. وهي قراءة قائمة على عمليات التقسيم والاستدلال والبرهنة، مما مكن صاحبها من أن يحتل مكانة لافتة في الفكر العربي المعاصر أيضا.

غير أن الجانب «الذاتي»، هنا، لا يعارض جانبا آخر أوسع كان يتأطر ضمنه، يقول الجابري: «إن الكتاب يندرج في حياة المؤلف فهو من هذه السلسلة التي جمعنا فيها بين ما يشكل علامات في حياة المؤلف فهو من هذه الناحية الزاوية ذاتي شخصي، وبين ما يشكل لحظات رئيسية في مسيرة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وبعده الاتحاد الاشتراكي، الحزب الذي في إطاره جرت وقائع التجربة السياسية للمؤلف» (ص7). غير أن تعامله مع الموضوع/ الحزب لا يكشف عن أي نوع من «التحزب الأعمى» أو «الشخصي»، ثم إن انخراطه كان حصيلة «الطابع العصري» الذي سعى من خلاله «معبود الشباب» (المهدي بن بركة) إلى أن يباعد بين الحزب و«الزاوية» كما يقول الجابري نفسه (1 ص37، 45). وكان هذا «الفهم العصري» قرين «الفكر الثوري» الذي يتقوم على «النقد» الذي ينصرف بدوره، وفي منظور بن بركة، إلى «التطهير» و«البناء».

وبالنظر إلى مواضيع الجزء الثاني (النقد الذاتي، مؤتمر الشعوب.. والاختطاف) لا يبدو غريبا أن تخفت ــ لكي لا نقول تتوارى ــ نبرة «وقائع التجربة السياسية للمؤلف». ويقول المؤلف إنه لن يخوض في هذه المواضيع أو الأسئلة على «صعيد الفكر المجرد»، بل سيحاول الاقتراب من الجواب عنها بـ«الاقتراب أكثر من شخصية المهدي» (ص13). وهل المقصود، هنا، بـ«الفكر المجرد» مقاربة عبد الله العروي وهو ما كنا قد أشرنا إليه في المقال السابق («إخفاق الإيديولوجي») بأسلوب «التحليل المجرد»؟ إجمالا فالكتاب لا يخلو من تلميح آخر إلى العروي في أثناء الحديث عن «الاختيار الذاتي» الذي قيل بأن العروي ساهم ــ إلى جانب آخرين ــ في صياغته. يقول الجابري: «نعود إلى ما قيل حول مساهمات بعضهم في هذا التقرير. ان القضايا التي عالجها هذا التقرير هي قضايا الاتحاد الوطني ولا يعرفها إلا من عاش داخل قيادة الاتحاد...) ولذلك فنحن مع ما ذكره الأستاذ محمد حربي، من ان المهدي عرض التقرير على بعض الأشخاص بمن فيهم الأخ محمد حربي، وأن هؤلاء لم يضيفوا شيئا يستحق الذكر» (2 ص52).

واللافت للنظر ضمن قراءة محمد عابد الجابري تشديدها على جانب «الفكر» في «مشروع» المهدي بن بركة، وتتصور أن ديناميته على مستوى الممارسة العملية لم تكن تقل على مستوى الممارسة النظرية (الجزء الأول/ ص10). وكما أن جانب الفكر هو ما لا يتم الاستناد إليه لا في التعامل مع بن بركة فقط، بل وفي التعامل مع الحركة الوطنية والأحزاب السياسية في المغرب... ومن الأجانب والمغاربة، الفاعلين السياسيين منهم والباحثين الأكاديميين.. وعلى هذا المستوى الأخير كثيرا ما تم التشديد على جانب «الممارسة» كما يلاحظ الجابري (الجزء الثاني، ص40). إجمالا يتصور الجابري أن بن بركة «فكر يتحرك وحركة تفكر»، فكر لا يعترف بالمسافة، ويشكل مصدر قلق وخوف للشركاء والأصدقاء قبل الخصوم والأعداء (ص15). ويعرض لهذا الفكر من خلال ثلاث قضايا، هي: 1 ـ الأداة/ الحزب: كيف ينبغي أن يكون حتى ينخرط في «عهد» الاستقلال، 2 ــ قضايا المغرب/ البناء والتقدم والمجتمع الجديد، 3ــ قضايا التحرر/ تحرر بلدان العالم الثالث من الإمبريالية. ويعرض الجابري، وبطريقته المعهودة، لدقائق هذا الفكر، ثم إن حرصه على إعطاء صورة مركزة، ومدققة، جعله يلجأ إلى أسلوب «التلخيص»: تلخيص نصوص الشهيد ومحاضراته، واقتراح عناوين فرعية لها، بل إنه أثبت في مختتم الجزء الأول نصا كاملا «نحو بناء مجتمع جديد» في ست وعشرين صفحة من أصل ست وتسعين صفحة هي مجموع صفحات الكتاب. إلا أن أسلوب التلخيص (وبغير معناه البيداغوجي) لا يخلو من مواقف، بل ومن محاولة إعطاء صورة مغايرة في بعض الأحيان. وهذا ما يبدو جليا أثناء الحديث عن قضية عباس المساعدي مثلا.. إذ استطاع ــ وإلى حد ما ــ «تبرئة» المهدي من هذا الملف الذي اقترن بها اقتران النار بالحلفاء والسم بالأحشاء.

وكما لا تحيد قراءة الجابري عن تتبع «تمثلات المثقف»: المهدي بن بركة ــ المثقف الذي سيصطدم بـ«الدولة» وقبل ذلك بـ«الحزب» الذي كان وراء بنائه. وعلى المستوى الأول وبعد أن كان، في فترة الاستعمار، «كل شيء في حزب الاستقلال»... سيشعر بأنه «وحيد» في بدايات الاستقلال، ولذلك سيبادر ــ وتماشيا مع «تيار التجديد» الغالب ــ إلى إنشاء حزب «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» عام 1959. ويشرح الجابري بأن العملية تجديد للحركة الوطنية، وليست انفصالا عنها (1 ص28). غير أن هذه المبادرة لم تمنعه من الشعور بمزيد من «الغربة» و«الوحدة»، وهذه المرة بعد ثلاثة أشهر فقط من تأسيس الحزب سالف الذكر.

ولذلك، وعلى وجه التحديد بعد سبعة أشهر من «انتفاضة» 25 كانون الثاني (يناير) 1959، ستبدأ غربة المهدي الأولى الإرادية التي ستستمر من ايلول (سبتمبر) 1959 إلى ايار (مايو) 1962. غير أن هذه الظروف لم تمنعه من حضور المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية المنعقد في ايار (مايو) 1962، لكنه سيحضره «غريبا»؛ هذا بالإضافة إلى أن «الكتابة العامة» للحزب عمدت إلى حجب التقرير الذي كان المهدي قد بعثه ولم يظهر له أثر بين المناضلين. وهو التقرير الذي عرف بـ«النقد الذاتي»، ثم فيما بعد بـ«الاختيار الثوري». إلا ان ذلك لم يمنعه من «تسريب» بعض الأفكار الواردة في التقرير وخاصة منها ما يخص التنظيم والعلاقة مع المنظمات الجماهيرية (2 ص 52ــ53). وفي هذا الإطار ينضاف خصوم الحزب إلى ما أسماهم الجابري بخصوم «القوة الثالثة» الذين كان مستقبلهم السياسي والاقتصادي سيتأثر بـ«التطهير» الذي كان المهدي ينادي به في نطاق «بناء مجتمع جديد». وهذا ما جلب له خصوما كثيرين و«في كل مجال وفي جميع الأوساط» كما يقول الجابري (2 ص 22).

غير أن هذه الغربة الإرادية سرعان ما ستعقبها غربة ثانية «اضطرارية» أو «نهائية» ابتداء من 15 حزيران (يونيو) 1963. وفي هذا الصدد يمكن أن نشير إلى محاولة اغتياله بحادثة سير مخطط لها من قبل عناصر «ألكاب 1» التابعة للجنرال الدموي أوفقير يوم 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1962 أي في سياق الحملة على مقاطعة الاستفتاء على دستور 1962 الذي بموجبه سيتم التنصيص على أن «الإسلام دين الدولة والملك أمير للمؤمنين». وكل ذلك في سياق سلسلة من العمليات التي استهدفت الاتحاد الوطني وكوادره، وكل ذلك أيضا في نطاق ما عبر عنه الجابري بـ«إرهاب الدولة» الذي هو في تصوره «ممارسة للسياسة ضد المعارضين بوسائل غير سياسية، وسائل العنف خاصة» (2 ص98).

فمن الجلي أن محاصرة الرجل كانت من قبل «الحزب» و«الحكم المطلق» معا. وهو ما تأكد منذ أول مشروع أقدم عليه في نطاق إعطاء مضمون حقيقي للاستقلال أي مشروع «طريق الوحدة» الذي خطط له وأشرف عليه عام 1957 محاولا فيه أن يجعل من «السواعد البشرية» ــ وسواعد الشباب على وجه التحديد ــ وعلى غرار تجارب بعض البلدان الاشتراكية ــ «نواة» تؤسس لتنظيم شعبي لبناء الاستقلال. يقول الجابري موضحا هذه الفكرة: «غير أن هذه المحاولة (أي طريق الوحدة) قد أفشلت من طرف «الحزب والدولة»: أما حزب الاستقلال، وأعني قيادته التقليدية التي كانت ترى في المهدي شخصا يسبق «القافلة» فقد عملت على فرملة خطاه بالاستحواذ على الشبيبة الاستقلالية وتدجينها، وبالتالي عزل جمعية «بناة الاستقلال» وعدم الاعتراف بها ودفعها إلى التشتت. وأما الدولة، دولة الاستقلال، التي كانت قد شرعت في إعادة بناء نفسها كدولة «المخزن»، فلم تكن لتقبل أن يتم بناء الاستقلال من القاعدة وبواسطة السواعد الشعبية كما كان يفكر المهدي» (2 ص86). وهذه المحاصرة لم تكن سهلة لدرجة أن «عينيه» أدمعتا أكثر من مرة كما يقول الجابري الذي عاشره. وهذا ما يفسر إقامته لمدة 22 شهرا بالمغرب من أصل سبع سنوات بعد انتفاضة 25 كانون الثاني (يناير) 1959, غير أن المهدي، وعلى مدار هذه الفترة، كان قد رسخ اسمه كزعيم لمناهضة الاستعمار في أقطار بلدان العالم الثالث، بل صار «متجولا» و«ناطقا رسميا» باسم هذا العالم من خلال جملة من الأنشطة تبتدئ ــ وكما يُرجح ــ من خطابه في مؤتمر الشعوب الإفريقية المنعقد في تونس ابتداء من 25 كانون الثاني (يناير) 1960 إلى مؤتمر القارات الثلاث الذي لم يكتب له أن يترأسه في الأسبوع الأول من كانون الثاني (يناير) 1966 كما كان مقررا له. وغير بعيد عن الندوة العالمية حول «دور إسرائيل في إفريقيا» التي كان وراء تنظيمها بالقاهرة ما بين 30 اذار (مارس) و6 نيسان (أبريل) 1965، ونجاحه في جلب العديد من الوجوه والمنظمات العالمية المناهضة للاستعمار فيها، سعيا منه إلى ربط القضية الفلسطينية بالتيار العالمي الذي كان يدعم (وقتذاك) القضية الفيتنامية وقضية النضال ضد العنصرية في جنوب إفريقيا. وفي هذه الندوة ألقى عرضا قويا أمام ألفي مشارك مشددا فيه على أن إسرائيل لا تعدو أن تكون مجرد «أداة» للإمبريالية والاستعمار الجديد، ثم إن التجربة الإسرائيلية في «التنمية» التي انبهر بعض القادة الأفارقة مجرد «خدعة».

ويتصور الجابري أن نشاط المهدي «الثالثي» كان استمرارا لنشاطه الحزبي بالغرب، من هنا دلالة تسمية ما ينعته بـ«الاتحاد العالمي للقوات الشعبية المناهضة للاستعمار الجديد» كمقابل لـ«منظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية الأمريكية اللاتينية» (Tricontinentale). وفي هذا الإطار تفهم عملية اختطافه يوم 29 تشرين الاول (أكتوبر) 1965 ومن قلب العاصمة الفرنسية، العملية التي «حيكت بإتقان» (2 ص109). ويعرض الجابري لأربعة أطراف كانت لها مصلحة في الاختطاف، وهي: خصوم الديمقراطية في المغرب أو «الكبار الأقزام من عملاء الاستعمار في المغرب» كما ينعتهم في موقع آخر، والمصالح الاستعمارية الفرنسية، والإمبريالية الأمريكية، وإسرائيل. غير أنه يرجح طرف الإمبريالية الأمريكية، والسبب ــ في نظره ــ أن المهدي راح يتحرك من أجل ضم أمريكا الجنوبية إلى «منظمة التضامن الأفرو ــ أسيوي» التي لم يكن التحرك فيها يجاوز «الحرب الباردة»، ومعنى ما سلف أنه راح يتحرك خارج دائرة «الخطاب» أو خارج دائرة «سردية التحرر» إذا جازت عبارة إدوار سعيد («تأملات في المنفى»، ص34)، وأن تنسيقا ما أخذ يلوح في الأفق بين الثورة المسلحة التي يقودها تشي غيفارا وتيار حركات التحرر الوطني التي يقودها المهدي، مما يشكل خطرا على أمريكا.

واللافت للنظر، في تحليل الجابري، استدراجه لشهادة البخاري (أحد عناصر «الفرق الخاصة» في الشرطة المغربية التي كانت وراء الاغتيال)، ورغم تحفظه على بعض معلوماتها فإنها تحمل ــ في نظره ــ من التفاصيل أكثر من غيرها (2 ص101). هذا بالإضافة إلى أن «الغرض» من الاختطاف كان ــ في منظور رجل الاستعلامات ــ هو المجيء بالمهدي «حيا»؟

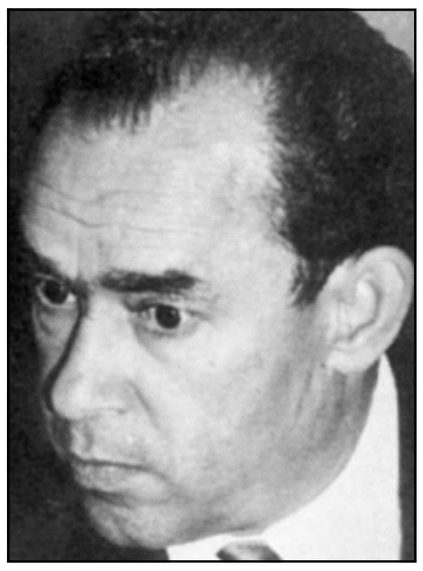

المهدي بن بركة (القدس العربي)

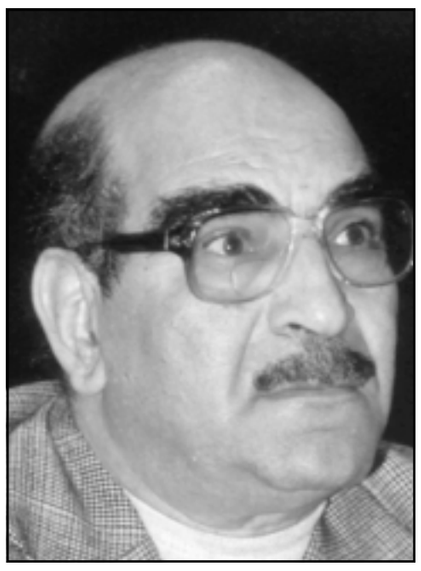

محمد عابد الجابري (القدس العربي)

* ناقد وباحث من المغرب

حول ندوة العقل والإسلام في فاس

عزيز الحدادي

■ بمبادرة مشرقة من بيت الحكمة في المغرب الذي انبثق عن توصيات ملتقى ربيع الفلسفة بفاس الذي تنظمه جمعية أصدقاء الفلسفة، وفي إطار احتفال المغرب باليوم العالمي للفلسفة 2006 الذي دعت إليه نفس الجمعية، تم تنظيم أول مناظرة لهذا البيت في موضوع: العقل والإسلام، بدعم من مجلس مدينة فاس، هذا المجلس المبادر والذي يستحق الشكر والاعتراف بالجميل. وبمساهمة جامعة ابن رشد الربيعية التي تتأهب لعقد اول مؤتمرها في شهر شباط (فبراير) بمدينة مدريد بدعوة من رئيسها الدكتور خوان مارتوس كيسادا، وبتنسيق مع جمعية أصدقاء الفلسفة والجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة.

وقد ساهم في إنجاح هذا اللقاء الفكري نخبة من الأساتذة المفكرين بمداخلات متنوعة وعميقة، هكذا تدخل الأستاذ محمد المصباحي من كلية الآداب في الرباط والعميد الثاني لجامعة ابن رشد بموضوع ملحمة العقل في الاسلام، والأستاذ محمد مصطفى القباج مقرر أكاديمية المملكة المغربية بموضوع كيف يخدم العقل الاسلام، ودافع الأستاذ عبد السلام بن ميس أستاذ بكلية الآداب في الرباط عن دور العقل في بناء ثقافة التسامح، في حين حاول العميد عبد الوهاب التازي سعود ان يترصد الدور الذي لعبه العقل في مسار الاسلام، ولعل إدريس كثير الكاتب العام للجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة قد تساءل عن الدين والعلمانية. أما عزيز الحدادي رئيس جمعية أصدقاء الفلسفة فقد اختار أن يتناول موضوع: الدين والسياسة من الاستبداد إلى التنوير. والملاحظ أن تنوع هذه المداخلات وتعدد أسئلتها قد جعلها تنساب كنهر من تبر من الصعب تقديم ملخصاتها، ويشفع لنا أيضا أن الأستاذ أحمد الشباب مدعم بيت الحكمة ونائب رئيس مجلس المدينة وعد بالعمل على طبع أعمال هذه المناظرة في أقرب وقت من أجل تعميم الفائدة على القارئ. كما نستغل هذه الورقة من أجل أن نتقدم بالشكر إلى الأخ السعيد بنعمر رئيس مصلحة الثقافة الذي ما فتئ يدعم الحكمة والحكماء.

لكن لماذا العقل والإسلام؟

يمكن القول ان أهمية هذا الموضوع لا تكمن في كونه يثير أسئلة عميقة ومثيرة للنظر والتأمل فقط، بل أنه موضوع العصر سواء في الغرب أو في العالم العربي والإسلامي، وبشكل خاص في المغرب بلد الأقليات الإسلامية كما جاء في فتوة فقيه الإغلاق والجبر. كما ان محاضرة البابا الأخيرة والتي استشهد بالفقيه الظاهري ابن حزم ليحكم على أن الإسلام يغيب فيه العقل وانه دين التعصب واللاعقل، لذلك أصبح الناس يتساءلون عن الأسباب الداعية إلى مثل هذه الآراء المغلوطة والتي قد تساهم في قتل حوار الثقافات وتسامح الأديان وتعايش الحضارات، هكذا تجدهم يقرأون ردود الفعل ويتحمسون ويتعاطفون، لكن هل بإمكانهم ان يتساءلوا عن علاقة الإسلام بالعقل وان ينتجوا خطابا علميا؟ بل ما علاقة الدين بالسياسة وبالتنوير والحداثة، وما هي آفاق الأمة العربية وما الذي ينتظرها من تحديات كبرى؟ لنستعر سؤالا أكثر دلالة من الشيخ محمد عبده الذي طرحه في القرن التاسع عشر والسؤال هو ما هي أسباب ضعف الأمة الإسلامية؟ والواقع أن الشيخ محمد عبده لم يلتفت إلى أن أهم سبب التأخر هو الانغلاق الفكري الذي يجر وراءه تراثا مثقلا بالخرافة والأساطير ولا يترك منفذا للرؤية والابصار، ومع ذلك قد تنبه شيخنا الى ان المشكلة ليست في الدين، ولكن في مسلك بعض رجال الدين الذين يقومون بنشر الإيمان بالجبر الذي يؤدي بدوره إلى التوكل والاستسلام وعدم الاهتمام بالاجتهاد والإبداع وبناء المجتمع. وبعبارة أخرى ان غياب العقل كان هو السبب الحقيقي في هذا التأخر، بيد ان محمد عبده حين أراد الإجابة عن أسباب تقدم أوروبا انساق نحو التعميم والانزلاق الصامت في الغموض فاتخذ من اللغة الخطابية الإنشائية وسيلة لأنه يأخذ على أوروبا قوتها، ولا يبحث عن مصدر هذه القوة. هل ينتظر منها أن تتجه إلى الضعف ليتهمها بالابتعاد عن الدين؟ أليس من الأفضل ان يوضح الجوانب التي ساهمت في تقدم الغرب ويذكر عصر النهضة، والتنوير، والحداثة، والتقنية، دون أن يشعر بالحرج؟

لماذا هذا الارتباك أمام الغرب وأمام تقدمه وقوته، لماذا لا يتوجه إلى قرائه ويدعوهم إلى التسلح بالعلم والمعرفة باعتبارهما سبيلا نحو التقدم والازدهار، خاصة حينما يتم التشبث بالدين في منبعه الأول والابتعاد عن فتاوى فقهاء الجهل والظلام؟

لا بد للفكر ان يرتبط براهنه ويسائل عن حاضره من أجل استقراء تلك العلامات التي تنبئ بقدوم حدث ما سيكون له أهمية كبرى في حياة الناس لأنه سينقلهم من القصور الفكري إلى الرشد ومن العتمة إلى النور. والقصور الفكري هو تلك الحالة التي تجعل من الإنسان خاضعا للاستبداد من قبل إنسان آخر.

لكن ما هي النصيحة التي يقدمها لنا عصر التنوير؟ إنها تتجلى في العبارة التالية التي تركها لنا كانط: «فلتكن شجاعا وجريئا على بلوغ المعرفة». معنى ذلك ان كل شخص لا يمتلك الشجاعة والجرأة على تقبل المعرفة والعقل فإنه سيظل خارج هذا الحدث ما دام انه لم يعمل بنصيحة التنوير، ولقد كان صاحب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد عبد الرحمن الكواكبي على حق حين قال بان الأمة التي لا تتألم من الاستبداد لا تستحق الحرية.

نداء لمثقفين عرب من أجل دارفور

■ 6منذ سنة 2003 ورحى الحرب تدور في دارفور. وقد تسببت الى الآن في موت 300 ألف شخص، وتشريد أكثر من مليونين، بعد تدمير حوالي 800 من قراهم، وهو ما يمثل ثلث سكان المنطقة.

ورغم النداءات العديدة التي أطلقتها المجموعة الدولية، فان المدنيين يظلون مستهدفين يوميا من قبل القوات المسلحة السودانية و الجانجاويد، أي الميليشيات المجهزة من قبل النظام العسكري بالخرطوم. كما أن بعض فصائل الحركات المتمردة مسؤولة هي الأخرى عن خروقات وانتهاكات لحقوق الانسان ازاء سكان هذه المنطقة.

ورغم أن الحكومة السودانية وقعت مع قسم من المتمردين معاهدة سلام في ايار/ مايو 2006، فان الاغتصابات الجماعية والهجمات على المدنيين و على أعضاء البعثات الانسانية الدولية متواصلة في غربي السودان. والى اليوم ترتكب جرائم الحرب وترتكب انتهاكات فادحة للقانون الدولي في غياب أي عقاب للمتورطين.

لقد أدى النزوح الكثيف لسكان الأرياف نحو مخيمات اللاجئين الى اضمحلال الفلاحة المحلية، وهو ما جعل سكان المنطقة يعولون تعويلا كليا على المعونات الغذائية، وما جعل شبح المجاعة يهدد دارفور وينضاف الى الخراب الناجم عن الحرب.

ورغم القرار 1706 الصادر عن مجلس أمن الأمم المتحدة، فان النظام السوداني يرفض رفضا قاطعا نشر قوات دولية لحفظ السلام بدارفور، وهو ما جعل الجرائم المرتكبة في هذه المنطقة تمارس في الخلوة التامة.

ان الموقعين على هذا النداء يستنكرون صمت العالم العربي ازاء هذه المأساة، و يطالبون الفاعلين في المجتمع المدني، والمسؤولين السياسيين بحث حكوماتهم وحث المؤسسات الاقليمية على اتخاذ مواقف واضحة من أجل وقف المعارك بدارفور، وارغام الحكومة السودانية على ايجاد حل سلمي للخلافات على خلفية احترام حقوق سكان دارفور.

حرر هذا النداء بمبادرة من جمعية بيان الحريات.

بعض الموقعين :

أحمد أبو دحمان، كاتب (السعودية)
أدونيس، شاعر، سورية
الياس صنبر، كاتب (فلسطين)
ايلان هاليفي، كاتب (فلسطين)
برهان غليون، باحث في السياسة (سورية)
البشير هلال، ناشر (لبنان)
توفيق علال، رئيس جمعية بيان الحريات (فرنسا)
جمال الغيطاني، روائي (مصر)
حازم صاغية، صحافي (لبنان)
دلال البزري، كاتبة (لبنان)
رجاء بن سلامة، كاتبة (تونس)
سناء بن عاشور، أستاذة قانون (تونس)
صلاح ستيتية، كاتب وشاعر (لبنان)
صوفية بسيس، مؤرخة (فرنسا)
عبد القادر الجنابي، شاعر (العراق)
فايز ملس، أستاذ (سورية)
فتحي بن سلامة (محلل نفساني، تونس ـ فرنسا)
كاظم جهاد حسن، كاتب وجامعي (العراق ـ فرنسا)
ليلى صبار، كاتبة (الجزائر)
محمد أركون، فيلسوف (فرنسا)
محمد حربي، مؤرخ (الجزائر)
محمد عبد المطلب الهوني، قانوني (ليبيا)
نادر البزري، فيلسوف (لبنان، بريطانيا)
نادية تازي، فيلسوفة (المغرب ـ فرنسا)
نور الدين السعدي، قانوني وكاتب (الجزائر ـ فرنسا)

الرجاء ارسال التوقيعات الى العنوان التالي:
manifeste@manifeste.org

بستان قُريش

حميد سعيد *

لا زيدُ الخيل .. ولا زيدُ الخيرْ
موحشةٌ أرضُ الأسئلة الأولى في بستان قريشِ ..
رحلت عنها الأنهارْ
وجفاها الطيرْ
حدَّثنا الكلبيْ
عن الخنزيرِ بن العبدْ
عن كلبونْ
قالْ:
يأتي زمنٌ يتَهادى فيه الفقهاءُ الناسْ
يستبدلُ شيخُ السوءِ .. كتابَ الذل ..
بما كتبَ الجاحظُ والحسنُ البصريُّ ..
ويُطردُ بشرُ الحافي
ويُصلَّبُ زيدُ بن عليّ .. ثانيةً
ويُباعُ أبو حيان التوحيدي .. بدولارينْ
لا زيدُ الخيلِ .. ولا زيدُ الخيرْ

***

إلى أينْ ..
تمضي اللغةُ الميْتةُ ..
وإلى مَ .. تنوءُ رواياتُ الأفكِ، بما حملتْ؟
ولماذا يغتالون عليَّ بن الجهمِ ...
ويختطفون ابن زريق البغدادي ..
يَغتصبون .. علُيَّةَ بنت المهدي ..
ويعيدون الى الظلماتِ .. القمر الطالعَ من فلَكِ الأزرارْ
؟
ثمَّةَ أسرارْ
ما لله لقيصرَ
ولقيصرَ ما للهْ
ليسَ سوى افواه تتساقطُ منها الكلماتْ
باردةً ومشوَّهةً
تتزيا الجُملُ الناقصةُ .. بزي النُساكِ ..
أمامَ الناسْ
وترقص عاريةً في ليلِ العُهرِ .. بلا إحساسْ

***

كتبَ النهرُ وصيَتهُ .. بعدَ رحيل الماءْ
يَرثُ الأحياءْ
ما كانَ ..
وللموتى .. ما سيكونْ
في هذا العصر المجنونْ
يَغتصبُ الأحلامَ البيضَ .. الأفيونْ
كان هنا عبدالله .. وكانت سيِّدة الشجر الناهدِ ..
في بستان قريشَ
فلماذا يهجرها عبد الله .. ويجفوها رغدُ العَيشْ
في هذا الطيشْ
تُنزعُ ذاكرةُ الورد عن الورد ..
ويتَّخذُ القاتلُ سمتَ القاضي
هذي البُقعةُ حمراءْ
وتلكَ النقطةُ سوداءْ
بينهما .. مقبرةٌ، يتجمع عند قبور الفقراءِ ..
يَمامُ الماضي
كان هنا الطيرُ الأخضرُ .. يخرجُ من هزَجِ الأطفالْ
من شهقة موَّالْ
روَّعهُ حفارُ قبورٍ محتالْ
فطارْ

***

اقتربي .. يا مَن كنتِ معي لأكونْ
اقتربي .. يا مَن كنتِ معي حيث أكونْ
اقتربي .. سأكونْ
اقتربي .. يتعافى الرملُ وتنزلهُ جناتٌ وعيونْ
اقتربي .. تبُعث ليلى .. ويعود العقلُ الى المجنونْ
أناديك .. اقتربي
تبتعدينْ
أبحث في أرضك عن ماء .. عن طينْ
نملٌ شرسٌ وخيولٌ نافقةٌ وعقارب حمرٌ وصلالْ
هذي الأطلالْ
أسرار الوعد الأول تغفو في بستان قريشٍ .. تدخلُ
ليل الفتنة ..
يوقظها المطرُ الناعمُ حين تنامْ
وتداعبُ فتنتَها الأحلامْ
في جلوتها .. يتَجلىّ جمرُ مفاتنها
وتعيدُ الى الشيخِ .. صباهُ

***

لا زيدُ الخيل .. ولا زيدُ الخيرْ
جمعت وردَ صباها .. في صرَّةِ كتّانْ
مزَّقها الرملُ .. وعاثَ بورد صباهَا الجُعلانْ
يا أمَّ الخيرْ يا أمّي ..
يا ابنة رب النهرينْ
تعشقَها الأذنُ .. وتَعشقُها العينْ
فإلى أين ؟
إلى أين ؟

***

الفيلُ الآتي من مدنِ الأقنانْ
يهدم بيتَ اللهْ
والديرَ .. ومُعتزلَ الرُهبانْ
وبيوتَ الجيرانْ
ويقولُ الأقنانْ
هذا من أجل الانسان !!
الفيلُ الآتي من مدنِ الأقنانْ
أغارَ على بيت الحكمةِ ..
واغتالَ جنودُ الغزوِ .. الكَنديَّ وموسى الكاظم و النعمانْ
وشهَّرَ أعلامُ المحتلينْ
بزبيدة بنت العبّاسْ
وبعمَّتنا النَخلةْ
وبدجلة وبألوانِ جواد سليم
ولوحات التُرك ومهر الدين وآل سعيدْ
ومقامات القبانجي .. وبَستات البغداديينْ
شهَّرَ ..
بالجوري وبالبرحيِ وورد الرمّان
ويقولُ الأقنانْ
هذا من أجل الانسانْ !!
العرباتُ الوحشيَّةُ .. تلتهمُ الطرقات
الموت سجالٌ حتى بينَ الأمواتْ
هذي الشمسُ المذبوحةُ
هذا القمرُ الخائفُ
هذا الحقلُ الهاربُ
هذا الثمَرُ المغتصَبُ .. يقولون ..
اعتذر البُلبُلُ من أفنان التينْ
وبنى مقبرةً في ساريةٍ يتدلّى منها علَمُ المحتلَّينْ
مقصلة .. يستبدلها الأوباشُ بنصبِ الحُريَّةْ
وخطوطٌ متوحشةٌ ..
تدفع ما خطَّ البغداديُّ على واجهة الجامعِ ..
في سوق الغزلِ .. وتُسقطهُا كسَراً
..
لا تحزن يا هاشمُ ..
حين يعودُ الى بستانِ قُريشٍ .. ما كان لبستانِ قُريشٍ
ستقومُ حروفُكَ ..
من ألف الثلث .. إلى ياء الرقعة ..
من سطرٍ في عَرصات الهنديَّةِ
أو سطرٍ في الميدانْ
أشلاءٌ في كل مكانْ
في غرف النوم .. على الجدران
في كراسَات الرَسمِ .. على
صفحات القرآن
يحملُ ليلٌ البغداديين وعوداً
بصباحات بيضْ
ويقول لنا الحكماءُ ..
انتظروا يومين ..
والديكُ يَبيضْ
لم يأت الصبحُ الأبيضُ
.. لكن ما زلنا ننتظرُ البيضةَ من ..... الديكْ
صلواتٌ فاسدةٌ
وقراءاتٌ فاسدةٌ
وروايات فاسدةٌ
ورجالٌ من قَشٍ ونساءٌ من فَخارْ
يُقتلُ عبدالله و تُنفى عشتارْ
يزدحمُ الموتى في الطرقاتِ ..
ويهربُ منها الأحياءْ
يَتوكأُ قَبرُ الحلاج على ظلٍّ منسَحبٍ ..
وتشيخُ المئذنةُ المليَّةُ في سامراءْ

***

يذهبُ سوقُ الغزْلِ بما فيه الى النسيان
البُلبُلُ والديكُ الأفغاني وطيور الزينةِ والانسان
كان الشيخُ جلالُ الحنفيّ يواصل مجلسَهُ ..
في جامع